

خيال الرافعي

[هدية إلى روح الرافعي في ذكرى وفاته]*

للأستاذ عمر الدسوقي

إذا تحامت الأفلام القديرة النقادة تراث الرافعي حتى اليوم ،
ولم تحاول عرض ما فيه من نفائس وعجائب على جبهة المتأدبين
في العالم العربي ؛ ليسكون لهم ينبوع إشباع بلهم ألبابهم ،
ويستثير عقولهم ، ويستحث خيالهم ، ويحكم ببيانهم ؛ وإذا لم يتقدم
بمدى الناقد الضاليع ، والكاتب المبقرى الذى ينفذ إلى نفسه
العميقة ، وخياله المغرب ، فيحلل أدبه ، ويبوئه منزلته في سفر
الخلود ؛ فما أظن ذلك عن تهاون بهذه الذخيرة الغنية ، ولكن
هيبة ورهبة وفرط إعجاب

ومسندة إلى الإمام الرافعي إذا تطاول يراعى إلى الخوض
في أدبه ، فلقد طال - علم الله - تردده وإحجامه ، ووقف دهشاً
ملكه البهر أمام هذا الدور الفيض الذى هتك الخدور عن
أبكار المعاني ، وهذا الذهن الثاقب الذى نفذ إلى أسرار الحقائق
فتخير أطيبها عنصراً ، وأكرمها جوهرأ ، وأجلها رواء ، ثم
كساها البيان الساحر أكل حلة ، ففدت فتنة التأمل ومحراب
الأديب . وإنما حفز هذا البراع - على ضعف منته ، ووهن
عدته - لتسطير هذه الكلمة ذكرى ارتحال الرافعي ، عليه
الرحمة والرضوان ، إلى جنة الخلد . وهى نفثة إعجاب ووقار ،
وإن ضن على الزمن بمعرفة شخصه إلا أنى مدين لروحه الكبير
بالشيء الكثير

وبعد ، فما اخترت الكلام عن خيال الرافعي ، لأنه أبرز
ما فيه ، وأجل ما خلفه ؛ ولكن لأن الرافعي نشأ شاعراً ملهماً
مشبوب الخيال ، ذا عبقرية فنية مبدعة ، وهو وإن أثر النشر
فيها بعد للانفصاح عما يختلج في نفسه من فكر ومعان ، فقد
لازمه خيال الشاعر في أكثر ما ديجمه قلمه في الأدب الإنشائي ؛
فكثير من مقالاته الوصفية قصائد نادرة في عالم الشعر والخيال ؛

وهو مصور قدير دقيق الحس ، يمرض لك المعنى البكر في أروع
صورة وكأني به عنى نفسه إذ يقول : « أما الذهن المبقرى فليس له
من المعاني إلا مادة عمل فلا نكاد نلابسه حتى تتحول فيه وتنمو
وتتنوع وتتساقط له أشكالاً وصوراً في مثل خطرات البرق »^(١)
وخيال الأديب النابغة له مظاهر شتى يتمثل فيها : فإما أن
يصور ما في الطبيعة ، وينقل عنها ويحاكيها ؛ وليس سر نبوغه
في هذا النوع جودة المحاكاة وإتقان التصوير ، ولكنه يستشف
من وراء ما يحاكيه أسراراً لا تخطر إلا له ، ويختار ما لا يقف
عنده إلا عين شاعر ، أو يحس جماله إلا ذوق فنان ، ثم يمرضه
للناس بعد أن ينث في من شخصيته وموهبته ، ويسبغ عليه
من خياله وبيانه ما يجعله صورة جديدة نادرة المثال

وإما أن يكون مرآة مصعولة تنطبع فيها الصورة المختارة
فتعكسها وتبرزها وحدها ؛ ويكون سر نبوغه في حسن ذوقه
واختياره ، وفي صفاء نفسه وقدرتها على إظهار الصورة خالية من
الشوائب واضحة مجلوة

وإما أن يخترع ما لا وجود له في الخارج ، ويخلق صوراً
وأشكالاً هي وليدة عقله وصنع خياله ، ويمقدار ما تكون
مبتكرة جميلة أخاذة يكون تفوقه ونبوغه

وإما أن يوازن بين صور الطبيعة بعضها وبعض ، وينظمها
في سلك ، ويأتى بالمفارقات التى تبهر العقول ، ولا تنأى إلا
لصاحب الخيال الشroud ، ومن تحسبه قد وضع الأشكال والمعاني
بين يديه يؤلف منها ما يشاء ، وينتقى منها كما يشتهى

وإما أن يوضح المعنويات بالمحسوسات ، ويضرب الأمثال التى
تقربها إلى الأذهان ؛ وإما أن يتخيل في الجداد حياة فينطقه
وينسب إليه - بالاستعارة والمجاز - أفعال الأحياء ، ويرتفع
بالطبيعة إلى درجة الإنسانية ، وكلما كانت استعاراته ومجازاته
طبيعية محبوكة طريفة برهن على سر نبوغه

والرافعي رزق من سمو الخيال ، وتوقد القرينة ، وإرهاق
الحس ، وكال الذوق ، ما مكنته أن يبتكر في كل هذه الأنواع
وأن ينمى الثروة الأدبية دون أن يجرى في مضمار غيره من
السابقين أو يسطو على معاني سواه . وإذا حاكى غيره فشخصيته

(*) انتقل المرحوم مصطفى صادق الرافعي إلى جوار ربه في يوم

الأمين ١٠ من مارس سنة ١٩٣٧

(١) وحى القلم ج ٣ ص ٢٢٩

ولا يتسنى لي في هذه الكلمة الموجزة أن أحلل وأعلّق وأبين مطارح الجمال في عباراته وخياله ، وحسب القارى أن يتأمل ويتذوق ويحكم . إن الرافى تمثل الطبيعة عاشقة جميلة ترضى حببها ، ولها من القدرة والفنى ما يمكنها من إرضائه ، بل لا يظهر منها إلا ما يرضيه ويفتنه ؛ وتأمل قوله : « أسباب حبه » وفسرها كما تشاء ، وعلل لماذا اختار الرافى هذه الكلمة دون سواها ؛ لأن أسباب الحب شتى من عطف وجمال وزينة وإبهاج ...

وانظر كيف رأى الأزهار « ألقاظ حب رقيقة » ، وهل رأيت تشبهاً أحلى وأرق وأوفى من هذا التشبيه ؟ لو لا تراه لا يزال على خياله من أن الطبيعة حبيبة تبادل ألقاظ الحب الرقيقة على لسان أزهارها المختلفة الشكل واللون والشذى ؟

ثم تأمل كيف يصور الشتاء فيقول : « وكانت الشمس في الشتاء كأنها صورة معلقة في السحاب ، وكان النهار كأنه يضىء بالقمر لا بالشمس ، وكان الهواء مع المطر كأنه مطر غير سائل ، وكانت الحياة تضع في أشياء كثيرة معنى عبوس الجو ، فلما جاء الربيع كان فرح جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعت أمهم من السفر ! »

تأله إن هذا وصف يفسده الشرح وأولى به أن يترجم ويذاع بين أُمم الأرض ليبرهن على أن الأمة العربية لم تنصب بالعمى في الخيال كما يدعى المفترون ، وأن فيها أمثال شكسبير وجيته ، وهو جو ، وأنا تول فرانس .

أقرأت مقالة « عرش الورد » في زفاف ابنته ؟ ألا ترى أنه يستشف من وراء الرصوفات أسراراً لا يقف عليها إلا المباشرة الملهمون ؟

إسمعه يصف تاج الورد الذى عقد حول عرش المروسين : « ونظر إليه يسطع في النور بجباله الساحر سطوعاً يخيل إليك أن أشعة من الشمس التى ربت هذا الورد لا تزال عالقة به »

أو اسمعه يصف لون الكرسيين اللذين نصبا على العرش : « ويكسوها طراز أخضر تلمع نضارته بشراً ، حتى لنحسب أنه هو أيضاً قد نالته من هذه القلوب الفرحانة لمسة من فرحها الحى » ليت شعري ! أكانت للرافى حاسة زائدة يقف بها على هذه

روحه تنفحان ما يأتى به صمة خاصة ترتفع به عن التقليد ولقد عرف الرافى الخيال الأدبى تعريفاً دقيقاً ، وألزم نفسه في جل ما كتب أن تتمثله ولا تحيد عنها فيقول : « والخيال : هو الوزن الشعرى للحقيقة المرسله ، وتخيل الشاعر إنما هو إلقاء النور في طبيعة المعنى ليكشف به ، فهو بهذا يرفع الطبيعة درجة إنسانية ، ويرفع الإنسانية درجة سماوية » (١)

وإذا كان الخيال سامياً ، والمعانى التى ينفذ إليها زائفة جديدة قيمة ، كان لا بد من صيغة تناسب ذلك الخيال وهذه المعانى ، ولا بد من عبارة طلية قوية تزيد المعنى روعة ، والخيال جالا . والرافى كان معنياً بعبارته أتم العناية ، بقدها وفق المعنى ، ويأتى بها رصينة جميلة منتقاة الألفاظ ؛ وفي هذا يقول : « ودورة العبارة الفنية في نفس الكاتب البيانى دورة خلق وتركيب ، نخرج بها الألفاظ أكبر مما هى ، كأنها شبت في نفسه شباباً ، وأقوى مما هى كأنها كسبت من روحه قوة ، وأدل مما هى كأنها زاد فيها بصناعته زيادة » (٢)

ويقول : « والكاتب الحق لا يكتب ليكتب ، ولكنه أداة في يد القوة المصورة لهذا الوجود تصور به شيئاً من أعمالها فنا من التصوير » (٣)

أقرأت مقالة « الربيع » في (وحى القلم) ! ألا تحس كأن الرافى اتحد بالطبيعة ، وفهم لغتها ، فجاءت إليها أسرارها ثم جاء يترجم عنها فنقل ما لم يتح لكاتب قبله . إسمعه يقول : « خرجت أشهد الطبيعة كيف تصبح كالمشوق الجميل لا يقدم لعاشقه إلا أسباب حبه ، وكيف تكون كالحبيب يزيد في الجسم حاسة لس المعانى الجميلة ! »

ويقول : « لاحت لي الأزهار كأنها ألقاظ حب رقيقة مفضاة باستعارات ومجازات ، والتسيم حولها كثوب الحسناء على الحسناء ، فيه تعبير من لابتته ، وكل زهرة كابتسامة تحنها أسرار وأسرار من معانى القلب المعقدة » . ويقول : « ويكون الهواء كأنه من شفاء متحابة يتنفس بعضها على بعض » (٤)

(١) مقدمة وحى القلم الجزء الأول

(٢) مقدمة وحى القلم الجزء الأول

(٣) مقدمة وحى القلم الجزء الأول

(٤) وحى القلم الجزء الأول

إعلان

بيع لوحة إعلانات بالمزاد العلني

يعلن الحارس العام لإدارة أموال
رعايا الريح الألماني في مصر أنه سيصدر
بيع لوحة إعلانات موجودة بأعلى
العمارة رقم ٤ بميدان الملكة فريدة وهي
مكونة من ثلاث لوحات من الخشب
الأبلكاج وبها عدة عرائض خشبية
ومحملة على كوابيل حديدية . وبمخلفها
ثلاث بطاريات كهربائية كاملة التوصيل
وموتور كهربائي بحالة جيدة

وسيكون البيع بمركز الحراسة
العامة بشارع عماد الدين رقم ١٠٦ قسم
عابدين بمصر في الساعة الثانية عشرة من
ظهر يوم الخميس ٢٠ مايو سنة ١٩٤٣
بالشروط الموضحة بقائمة شروط البيع
وعلى المشتري الحصول على نسخة
القائمة المذكورة من الحراسة العامة
ومغاينة اللوحة المعروض بيها قبل
تاريخ المزاد

فعلى من يريد الشراء أن يحضر
في الزمان والمكان المحددين به اليه
للمزايدة .

الأشياء فيزي أشعة الشمس لا تزال عالقة بالورد وسط الليل ،
وبلس فرحة الطراز الأخضر ، أم هو خياله الخصب ونشوة
السور صوراً له ما رأى !

ويقول : « وأقبل العذارى يتخطرون في الحرير الأبيض
كأنه من نور الصبح ، ثم وقفن حافات حول العرش حاملات
في أيديهن طاقات من الزنبق ، تراها عطرة بيضاء ناضرة
حيية كأنها عذارى مع عذارى »

وما أشبه الزنبقة بالعذارى الهيفاء في لينها ، وهيفها ،
ونضارتها ورانحتها وطهارة قلبها !

وماذا عسى أن أقدم إليك من هذه القصيدة المثالية ،
وحسبي ما اقتطعت منها وعليك بالرجوع إليها والوقوف لديها
ملكاً ؛ لتحملك على أجنحة الخيال إلى عوالم من السحر والفتنة
والفن ...

أقرأ مقال « البحر » و « الريح الأزرق » ، تأمل
في قوله : « والقمر زاه رفان من الحسن كأنه اغتسل وخرج
من البحر » ، وقوله : « نظرت إلى هذا البحر العظيم بعيني
طفل يتخيل أن البحر قد ملئ بالأمس وأن السماء كانت إناء له
فانكفأ الإناء فاندفق البحر ، وتمرحت مع هذا الخيال الطفلي
الصغير فكأنما نالني رشاش من الإناء »

وقوله : لطف الجمال صورة أخرى من عظمة الجمال ، عرفت
ذلك حينما أبصرت قطرة من الماء تلمع في غصن نخيل إلى أن لها
عظمة البحر لو صغر فعلق على ورقة »

وقوله : « الحياة في المدينة كشراب الماء في كوب من
الخزف ، والحياة في الطبيعة كشراب الماء في كوب من البلور
الساطع ، ذاك يحتوى الماء ، وهذا يحتويه ويبدى جماله
للعين ...

هذه صور من ذياك الخيال الفريد الفياض فيها ابتكار ،
وفيهما جمال وفيها دقة وروعة ؛ وأكتفي بمرضاها فهي غنية عن
التوضيح ، ولعلها تنبه بعض أدبائنا إلى ما عليهم من التبعة
إزاء هذا الأدب الرفيع .